

فجأة وبدون مقدمات

كانت السيارة تشق طريقها في إنسيابية علي الطريق المُمهد وسط طبيعة الصحراء الهادئة وبين التلال الذهبية التي اخترقتها ومهدتها سواعد شباب القوات المسلحة لتصبح ضمن أكبر وأعظم شبكة للطرق والممرات داخل الدولة. بدأ الطريق ينحني ويتلوى كثعبان داخل ممر سحري يخطف الأبصار ويسرق لحظات السفر في مشاهدة بانورما الطريق وقد تحول زجاج السيارة ونوافذها إلي شاشات لعرض أبدع المناظر المجسمة التي تخلق شكلاً من أشكال جلسات التنويم المغناطيسي، والتي تُعطي للأفكار تصريحاً لتتسارع وتتصارع داخل رأسي لكي تفوز أهمها بأولوية الظهور علي السطح أولاً حتي تقدمت إحداها وقامت بغزو عقلي والسيطرة عليه، والعجيب أن كل تلك الأفكار كانت تتمحور حول المستقبل.

بدأت بالتفكير في ضرورة الإسراع في الانتهاء من أعمال التشطيبات الخاصة بالفيلات وشراء المفروشات والتجهيزات المناسبة والتي وعدت زوجتي أن تقوم باختيارها حتي نتمكن من الانتقال والسكن قبل بدء دراسة الأولاد، ولم أنتهِ من التفكير حتي ارتسمت لي صورة الأولاد وضرورة البحث عن مدارس جديدة تليق بالمستوي العلمي والاجتماعي الذي أرغب في تحصيله لهم في المرحلة القادمة، وبينما الأفكار تتقاذفني وتتلاعب بعقلي في كل الاتجاهات إذا بجرس الهاتف يعلن عن اتصال من صديقي فتحي:

- ألو
- السلام عليكم
- وعليكم السلام .. أخبارك إيه طمئني عليك ؟
- الحمد لله بخير، بشرى خير، يبدو أن حظي حلو لأنك حتكون جاري في شاليه السخنة
- بجد؟! إزاي
- فيه واحد معرفة وله معاملات مع صاحب القرية طلبت منه يتوسط وفعلاً خلاص صاحب القرية وافق علي نسبة التخفيض والدفع علي أقساط.

- رائع ! أنا في طريقي إلي هناك علشان أفرج ونبدأ الإجراءات، وحتصل بيك أول ما أوصل
- أغلقت التلفون، وامتألاً صدري بالسعادة، وشُعرت وكأن الدنيا قد حيزت لي بحذافيرها، وامتلكت الكون عن بكرة أبيه، وتحذت إلي نفسي مُهنئاً، فها أنا أشغل منصباً رفيعاً بإحدى تلك الشركات العالمية، وقد استطعت أن أصبح واحداً من بكوات المجتمع الراقى، والحمد لله صحتي جيدة ولا أعاني من تلك الأمراض التي وقع فيها الكثير من أقراني، وحياتي العائلية مستقرة، وأولادي متفوقون، ورصيدي بالبنك يُسد كل ما علي من

التزامات، ويسمح لي بالاعتماد علي نفسي، بل وقد يتيح لي إنشاء مشروع استثماري معقول مستقبلاً. وبينما تطالعني لوحات الطبيعة بإبداع وتوقيع الخالق، إذا بسيارة هامر تمر بجواري لتداعب خيال أحلامي وتمنيتاتي بالحصول علي مثلها بالرغم من أنني أقود سيارة جيب شيروكي حديثة، إلا أن رغبتني في إمتلاك هذا النوع من السيارات جعلني أنسى أنني كنت أتمني منذ شهر واحد أن أمتلك سيارتي هذه التي أقودها الآن، ولكن هذا هو ابن آدم "لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب " صدق رسول الله صلي الله عليه وسلم.

فجأة شعرت بوخذه شديدة وضوء ساطع يغتال ناظري وكأنني أعبر في ظلام دامس بالرغم من أن الشمس ساطعة وقد انتصف النهار، تنبّهت إلي أنني قد أكون غفوت للحظات لأستيقظ علي ضوءاء ودخان كثيف وأشخاص تجري هنا وهناك وأنا مُلقى على جانب الطريق، نهضت مسرعاً وقد كنت خفيفاً لدرجة إحساسي بالرغبة في الطيران، تحولت في المكان لأري بعيني أفضع حادثة يمكن أن يراها إنسان، فقد ارتطمت سيارة مقطورة تحمل مواد بناء بأخري تحمل صهريج مواد بترولية، وبينهما أكثر من عشر سيارات صغيرة تحولت إلي قطع من معدن يمكنك بالكاد أن تميزها عن بعضها، تقدمت محاولاً تقديم المعاونة مع أفراد الأمن ورجال الاسعاف ولكنهم لم يلتفتوا إلي أو يجيبوني فقد كانوا بين شقي رحاه الذهول والواقع المأسوي لإنتشار الأشلاء في كل مكان وبالرغم من سؤالي لهم عما حدث وكيف يمكنني المساعدة كانوا لا ينظرون إلي أو يوجهون لي أي حديث أو طلب وذلك بالرغم من قلة أعدادهم في مواجهة تلك الكارثة المروعة.

اقتربت من أحد المسعفين وقد كان يبكي ويغطي الجثث بالجرائد وقد سبقته دموعه وفي محاولة لمساعدته والتخفيف عنه، إلا أنه لم يلتفت إلي، وبينما أقوم بمساعدته في تغطية وجه أحد ضحايا هذا الحادث محاولاً تجنب النظر إلي ملامحه إذا بي أري وجهي، ما هذا؟ أطحت بالجرائد بعيداً لأري من يكون هذا الشخص الذي يُشبهني، من هذا؟ .. إنه يرتدي نفس ملابسني إنه أنا !!!

لقد مُت ... لقد تعرضت لحادث وتوفيت ... لقد زال عني مُلكي ... لقد انتهى أُملي، وإذا بي أنشد أبيات كنت قد قرأتها عن الإمام الشافعي رحمه الله ..

تزول عن الدنيا فإنك لا تدري ... إذا جن عليك الليل هل تعيش إلي الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى أمسي وأصبح ضاحكاً ... وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وبين كلمات المسعفين وعبرات المشيعين، وانهيار صفوف من المتحسرين على شباب المفقودين إذا بي

أجري متوسلاً أن أعود إلي الدنيا لعلّي أعمل صالحاً وأشتري ديني بدنياي، وأسارع إلى مغفرة من الله، وأحصل على بيت في الجنة أو سهم في أراضيتها ... أريد فرصة أخيرة، ولكن إنا لله وإنه إليه راجعون. أشهد أن لا إله إلا الله * وأشهد أن محمداً رسول الله.

عُدت إلي جسدي مستلقياً ومُسلماً مستسلماً، متمنياً أن يتغمدني الله برحمته ويتجاوز عن سيئاتي وذنوبي وما اقترفته في حق نفسي وحق الناس مُضيعةً لنعم الله وقد كنت حياً صحيحاً معافى.